





# نحن والغرب

د. اسماعيل راجى الفاروقى*

---

يغزونا الفكر الغربى فى هذا العصر شر غزو ، ويدخل إلى وعينا بشتى السبل . فيحل محل الفكر الإسلامى العريق بعد أن يقحمه ، لايضعف فى الفكر الإسلامى، بل يضعف فينا.سببه جهلنا بالإسلام كنظام فكرى، وقلة وعينا الحضارى . إلا أن هذا الفكر الغربى الذى يجذبنا مريض فاسد رغم سعة انتشاره فى العالم . تعالوا نستعرضه معاً ، ونتبين الجرم الذى ترتكبه الأمة الإسلامية كل يوم بقذفها بأبنائها إلى الغرب ليستقوا منه العلوم وأسباب الحضارة ،فيعرضون أدمغتهم للغسل ويصبحون للغرب الثقافى إن لم يكن للغرب السياسى ، (كاريكاتورات ) وأتباعاً مخربين للوعى الإسلامى داخل الأمة .

تقوم العلاقات الإنسانية فى العالم الغربى على أساس واحد هو الشك كمذهب عام . يقول هذا المذهب :

---

* أستاذ الاسلاميات وتاريخ الأديان بجامعة تامبل ورئيس رابطة العلماء الاجتماعيين المسلمين بامريكا .

١ – لاشيء يعرف حقيقة سوى الظواهر الطبيعية : وفى العلاقات الإنسانية ، الظاهرة الطبيعية هى الرغبة :

٢ – الظواهر الأخلاقية لا تعرف حقيقة . فهى دائماً وأبدا مشكوك فيها لايعرف فيها شر حق ولا خير حق .

٣ – لايجوز لإنسان أن يدعى أن سلوكا ما خير من سلوك آخر إلا إذا أدى ذلك السلوك إلى إشباع رغبة من رغباته هو دون الآخرين :

يستنتج الغرب من هذه المبادىء الثلاثة أن العلاقة بين الإنسان والإنسان يجب أن تبنى على احترام رغبات الفرد . فهى وحدها حقيقة . ويعتقد أنه لا جدال فى الذوق ، ولا جدال فى الأخلاق ، ولا فى سلوك الفرد والجماعة ، لأن هذه الحالات كلها لا تعرف حقيقة فيها . فكل دعوة إدعاء ، وكل إقناع غسل دماغ ، وكل سلوك اجتماعى قهر وسيطرة ، ولكل إنسان ما رأى وما رغب بدون حساب أو عتاب . فالرغبة لا تضبط بمبدأ ، بل تسيطر عليها رغبة أخرى ، سواء من الشخص ذاته أو من الأشخاص الآخرين . وحياة الفرد حرب دائمة الرحى يشنها الإنسان ضد نفسه ، وضد ذويه ، وضد قومه . كما أن حياة الجماعة حرب يشنها الحاكم ضد المحكومين . وتشنها الجماعة ضد الجماعات الأخرى .

دعمت مبدأ التشكك الأخلاقى وما استنتجه منه الفكر الغربى من مبادىء سلوكية ، حركة كبرى عمرها الفا سنة . بل لعل هذه الحركة كانت هى مصدره . وهى على كل حال سبب نموه وازدهاره . هذه الحركة هى المسيحية . لقد باركت المسيحية مذهب الشك الأخلاقى ظنا منها بأنه يحقق

أغراضها . قالت المسيحية على لسان بولس ، ومازالت تردد على لسان كارل بارط وبول تيليش والمجمع الفاتيكانى الثانى : أن الإنسان مخلوق ساقط بنيت جبلته على الإثم والعدوان والمنكر ، لا أصل ولا جدوى من اجتهاده وعمله . فحياته كلها كتلة من الخطيئة والفجور ، والمجتمع ليس إلا ميدان الشيطان . أرادت المسيحية أن تبرهن على ألوهية المسيح فرأت أنه يلزم للإقتناع بعملية التخليص التى قام بها الإله بتجسمه فى المسيح وصلبه : أن يكون الإنسان عاجزاً عن تخليص نفسه بفعله . لذلك حطت من قدر الإنسان ونفت الأخلاق من سلوكه . فاتفقت مع مبدأ الشك بأن سلوك الإنسان لا حقيقة معنوية أو قيمية فيه .

عرف الغرب ثلاثة أنظمة أقامها على أساس من مبدأ الشك :

الفوضوية ، والليبراليةالإنجلوسكسونية ، والشيوعية : مازالت الأنظمة الثلاثة قائمة وإن غيرت أثوابها من عصر إلى عصر :

الفوضوية : قامت فى أول عهدها تحت تأثير المسيحية المباشر . فالمسيحية أبت أن تشرع للسلوك الجماعى وتركته للشيطان قيصر ، لأن الحياة الإجتماعية فى نظرها ، مقطوع منها : وأبت أن تشرع للسلوك الفردى : لأنه ميدان الرغبة ، والرغبة شر فى ذاتها . فلا رأى للمسيحية إلا التنكر للرغبة ومحاربتها والانعزال عن الجماعة . وهذه هى الرهبانية التى ابتدعتها مثالا للسلوك البشرى . وترك السلوك الإنسانى بلا شريعة دعوة إلى الفوضوية .

أما اليوم فالفوضوية المسيحية تقلصت والرهبانية تكاد تنقرض . الرهبان يتزوجون ويحششون ، يرتعون ويلهون ، يسعون ويرتزقون . والراهبات يلبسن الملابس الجذابة ويتحلين ويتزوجن ويخلفن . كلما تقدمت الحضارة الغربية فى بلد مسيحى يزداد ابتعاداً عن الرهبانية .

حل محل الرهبانية حركة أخرى هى الوجودية . إبتداء من رمى الحياة الإنسانية بالشر والإثم أكدت الوجودية أن لا أمل يرجى من حياة الإنسان لأنها لا خير فيها . بل هى مليئة بالألم والحزن والأسى وتنتهى بموت أكيد . وسعى الإنسان لن يرى لأنه كله غرور . فالوجود مأزق يجب التخلص منه ولا خلاص إلا بالارتماء فى أحضان المسيح ، الالهالمخلص . ويبقى السلوك الفردى والجماعى بلا شريعة ، وهى الفوضوية . والتسلسل منطقى : فإذا كان الدين خروجاً من مأزق الوجود ، فلاحاجة للاعتناء بالمأزق . ليذهب به قياصره إلى حيث ألقت .

**الليبرالية :** ولدت عمليا داخل صراع الملكية البريطانية مع الشعب فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . وولدت نظرياً على يدى طوماس هوبزوجون ستيوارت مل وجون منذ قرنين . تقوم الليبرالية على الشك بأن علاقة الإنسان بالإنسان فيها حقيقة أخلاقية أو قيمية . فابتداء منه ، تعارض الليبرالية كل امتداد لتأثير الإنسان فى الإنسان الآخر . فالإنسان ذات تحيا فى رغباتها ، ولا يدخلها مؤثر إلاهتكها . وكون الرغبة، أوالطبيعة، الحقيقة الوحيدة ، تأليه للرغبة لأنه ينفى وجود الحقيقة المعنوية أو العتموية التى هى وحدها القادرة على تطويع الحقيقة الطبيعية. فالموجود الذى لا وجود لغيره : إله فى ملكوته .

لكن التناقض بين رغبات الإنسان وغيره يؤدى إلى القتل . والقتل انتهاء للذات الراغبة . إذا لامانع من منع القتل ، ويسمح لكل شيء دونه ، أى دون العنف المادى الظاهر ، أن يأخذ مجراه . فاستمرار النظام الذى لا يؤثر فيه إنسان على إنسان ، واستمرار الإنسان نفسه ، يتطلب حماية الإنسان من أعدائه . فالمبرر الوحيد لإيجاد نظام وشريعة وحكم سياسى هو المحافظة على سلامة الفرد وحريته فى إشباع رغباته . لذلك نشأت الليبرالية ، ونشأت معها

الدساتير ونظريات حقوق الإنسان ، درجات فى تقييد الرعاة وشل تسلطهم على الرعايا :

أما الفرد ، فإذا أثر فرد آخر فى سلوكه فهذا تدخل ، بل نقض لشخصية المؤثر فيه . فالمبدأ الأساسى هو عدم شرعية التأثير . فالرغبة وحيدة ، وكوحيدة فى الوجود ، هى الإله الذى يجب أن يحترم . أما التطبيق ، فمراده المحافظة على حرية الفرد فقط . لذلك لا تدخل فى حرية الفرد إلا لمنعه من تحقيق رغبته بالعنف الظاهر : وإن كان كل تغيير أكراه ، إلا أن هنالك أكراه بعنف ظاهر وأكراه خفى : ولا يجوز التشريع إلا لمنع الظاهر فقط . إن تداخل رغبات الأفراد فى بعضها البعض يحتم تقيد التشريع . فكل من آنس فى نفسه الرغبة للتأثير على الآخرين كان له ذلك بشرط أن لا يلجأ إلى العنف الظاهر : والحكومة المثلى هى التى لا تحكم إلا بالقليل الأقل اللازم ، أى منع العنف — ولا تتدخل فى تحقيق رغبات الأفراد . وذلك أن الرغبات تنسب إلى أصحابها فقط ، فلا دعوة ولا ساوك ولا خير ولا شر تعرف حقيقته . الخير والشر متروكان للحكم الفردى .

وإن سألت الليبرالية عن الجماعة ، قالت : الجماعة كالفرد تماما : لها رغبات : هى المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية . وهى حقائق « يابسة » أى أولية لا سبيل لإنكارها . وهى وحدها طبيعية وحقيقة . إن تضاربت مع حقيقة يابسة لأمة أخرى ، كان لا مناص من أكراه الواحدة للأخرى . فإما أن يكون الأكراه عنيفاً — وهى الحرب — وإما أن يكون غير عنيف — وهى المفاوضة :

فالقومية مبنية على هذا الأساس : أن رغبة القوم هى وحدها الحقيقة : لذلك يجب أن تشبع بأى ثمن . فتنافس الأفراد كتنافس الأقوام : كلاهما طبيعى . إن أدى إلى عنف يجب أن تنتصر الجماعة على أعدائها

فالحرب سنة ، ولا تتجنب إلا لنجاح سبيل آخر يحقق نفس الغرض – أي إشباع رغبة الأمة ، بطريق غير ذى عنف – طريق التفاوض : لهذا لم يكن بد للحكومات الليبرالية من محاربة بعضها البعض ، ومن استعمار من لا حول له ولا قوة من الأمم الأخرى .

ولم ينشأ عندهم أى فكر عن القانون الدولى إطلاقاً قبل جروشس فى القرن السابع عشر . إلا أن القانون نفسه لم يوضع إلا بعد الحرب العالمية الأولى .وهاهى هيئة الأمم المتحدة نفسها فى عصرنا : تقوم أساساً على مبدأ منع العنف الظاهر ، وتبيح إشباع الرغبات مهما كانت . فقط فى الحقبتين أو الثلاث الأخيرات ، قامت هيئة الأمم باسداء بعض الخدمات فى الثقافة والعناية بالأطفال والأغذية ، لا على سبيل الفرض الواجب ، بل المصلحة المشتركة القائمة على الرغبة. والرغبة مازالت الا له إلا وحد .

**الشيوعية :** تقوم الشيوعية ، كما قامت الليبرالية الإنجلوسكسونية على مبدأ الشك ،أى : تأليه الرغبات بجعلها الحقيقة الوحيدة ، وبالتالى ، باعتبارها الرغبات معياراً نهائياً لكل ما هو خير وشر . إلا أنها تختلف عن الليبرالية بأنها لا تعترف برغبات الفرد بقدر اعترافها برغبات الجماعة. والجماعة : عندها ، ليست القوم بل الطبقة . فالشيوعية نظام تجنيدى Requinentatonial بالضرورة لأن الرغبة الطبقة عندها أولوية كبرى ، لا تنسق رغبات الأفراد معها بل تنقض وتنكر . لذلك كان تصور علاقة الإنسان بالإنسان فى الشيوعية : أن العامل زميل العامل أنى وجد ، وأنهما مجندان لخوض حرب ضرورية مع طبقة الرأسماليين المتسلطة ،وأن حالة الصراع هذه : حالة دائمة إلى أن تبيد الطبقة الطبقة الأخرى .

**النتائج :**

أدي مذهب الشك إلى نتائج طيبة وأخرى وخيمة .

أما الطيبة فثلاث :

**الأولى :** احترام الذات الإنسانية وحمايتها من كل معتد . فالحق يجب أن يقال : وهو أن نظام الشك، حقق للإنسان حقوقاً جليلة ، وإن كان تعريفهم للإنسان بالمواطن ، أى بفرد القوم ، لا الإنسان عامة . يتمتع الفرد فى البلاد الليبرالية بحرية كبيرة وتحترم الحكومة ذاته أشد الاحترام .

**الثانية :** أن تأليه الرغبات واحترام الذات شد فى أواصر القربى بين المواطن والمواطن وحث وعيهما بضرورة إشباع رغباتهما على التعاون المنتج الفعال ، سواء كان التعاون تطوعى كما يحدث بدافع القربى أو أكراهى كما يحدث بدافع القومية الغاشمة أو تجنيدى بداخل مصلحة الطب وذلك دائما يقصد الانقضاض معاً على فريستهما أى فريسة المواطنين حتى يقضيا عليها ويفترسانها ويشبعا رغباتهما .

**الثالثة :** تأليه الرغبات واحترام الذات جعل من المجتمع الغربى مجتمع نمور . لا يعتدى النمر على النمر، بل على فريسته . فكلاهما موجهان إلى الفريسة بطبيعة تأليه رغباتهما . فالفريسة الأولى هى الطبيعية . لذلك انقض الغربيون على الطبيعة انقضاضاً، ففكوا رموزها وطوعوها لخدمتهم بعد إذ سيطروا عليها . فالطبيعة فى نظرهم عدو ضعيف، عدو تمكنوا من افتراسه . ومازال الغربيون ينظرون إلى الطبيعة نظرة المتعطش ، المتأهب ، المفترس . وقد فجرت هذه النظرة ينابيع المعرفة الطبيعة، فنشأت العلوم وترعرت ، ثم تفننوا فى استغلال الطبيعة — وهو ما يعرف بالتقنية — وقد سبقوا المسلمين فى هذا المضمار سبقاً مقحماً .

**هذه هى النتائج الطيبـــة : أما النتائج الخبيثة فهى أيضا ثلاث ، تقابل النتائج الطيبة بل تضارعها :**

**أولا :**

غلا الغرب فى رعاية الذات الإنسانية وحمايتها بأن ألـّهها وجعلها وحدها الحقيقة ، فأصبح إشباع رغباتها هو معيار الخير والشر .

صحيح أن هذا من جهة : هو تأليه الإنسان ورفع شأنه . إلا أنه من جهة أخرى : هو مسخ للإنسان بإقصائه عن الله ، وعن ملكوت القيم والأخلاق . فالقيم والأخلاق أيضاً فطرة وطبيعة فى الإنسان دون أن تكون مادة كالجسم والحركة والرغبة . والله ، سبحانه وتعالى : حق ، موجود ، فعال لما يريد . وكل من الله والقيمة واليجب أن يكون يعرف حقاً ،يعرف يقيناً، يعرف إختبارياً ، وذلك بطريقين ، طريق الوحى المنزل من السماء وطريق التعقل .

فبنفى هذا الملكوت من الحقائق ، تصور الغربى نفسه : بأنه شبكة من الرغبات المتناقضة ، المتصارعة ، المتنافسة ، الطاغية حينا والمطغى عليها حينا آخر ، دون مبدأ أو معيار يرجع إليه فى حل خلافاتها . لذلك قسمه صراعها وتطاحنها على نفسه ، فأصبح مارمزت إليه شخصية الدكتور فاوست المسرحية منازعاً عليه من قبل الخير والشر دون أمل فى حل أو خلاص . Two Souls, alas, dwell within أى روحان ، وياللخسارة ، تقيمان فى صدرى . واقنع الرجل الغربى بأن مصيره كمصير آلهة الأغريق ، وآلهة الألمان ، لاشك سائر إلى الهلاك . وكان هذا المصير المأساوى نفسه المادة الأولى لفنه فى الرسم والنحت والأدب والموسيقى . وأصبحت التراجيديا أو المأساة عنواناً له . وهذا المصير نفسه يناقض الأساس الذى يبنى عليه . فالرغبة لا يمكن أن ترغب عدمها .

**ثانيـــا :**

غلا الغرب هنا أيضاً فى تأكيد أواصر القربى بين الجماعة، سواء أكانت جماعة القوم أو جماعة الطبقة . فولى الولاء كله للجماعة واعتبرها قوماً أو عنصراً لا يعلو على مصلحته شيء ، وإن كان مبدأ الجماعة نفسه مبنى على مبدأ رغبة

الفرد . فالغلو فى القربى يتناقض الغلو فى رغبة الفرد . ثم غلا الغرب أيضاً فى إقصاء علاقات الجماعة بالجماعات الأخرى عن ملكوت الله والقيم والأخلاق ، وغلا فى حصره الحقيقة فى رغبة الجماعة ، فكانت الحروب المستمرة نتيجة هذا الغلو واستعمار الأمم لبعضها البعض . وصراع الطبقات . كل هذا دون أى مبدأ أو معيار يعلو على رغبة الجماعة فتقاس به ، أو تحل به مشكلات الأمم دون قتل أو قهر .

عرف الغرب عصبيتين : عصبية القوم على الفرد وعصبية القوم على القوم . أدت الأولى إلى انحسار الشخصية الفردية بضرورة تطبعها بطابع الجماعة إلى أن أصبحت التربية عندهم لا معنى لها سوى التشبيه الاجتماعى Socialization التثقف الاجتماعى Acculfuration التوحد الكيفى الاجتماعى Homogeuization التكامل الاجتماعى Adjustment

وأصبح الشذوذ عن الجماعة شر وأن أصاب الفرد وأخطأت الجماعة . وأدت الثانية، أى عصبية القوم ، إلى استعمار الإنسانلأخيه الإنسان بالجملة ، أى بالملايين .أين من يقيس العذاب الذى ابتلى به ملايين وأجيال من البشر على يدالاستعمار الغربى؟ فكلا العصبيتان كانت بلاء وخروجاًعلى الأخلاق والدين.

**ثالثا :**

غلا الغرب فى استغلاله للطبيعة . فبالرغم من ازدهار العلوم الطبيعية على كافة أنواعها وتقدم التقنية فى خدمة الإنسان ، فإن تأليه الرغبات ومنع العنف ضد الزملاء النمور أدى إلى اغتصاب الإنسان للطبيعة ، أى إلى استثمار الطبيعة وتطويع قواها لإشباع الرغبات دون وازع أخلاقى ، دون معيار يعلو على الطبيعة والرغبات معاً ويخضعهما لقيمه وأوزانه . فكان تلويث الموارد الطبيعية ونهب الثروة الأرضية بلا حساب مما أدى بدوره إلى قلب توازن

الطبيعة فى كثير من الحقول . ومن يدرى حتى الآن إن هدد الغاز المحبوس فى العلب المملوءة تحت الضغط ، طبقة الأوزون فى الجو مما سينتج داء السرطان فى جلود البشر أجمع بتعرضهم لأشعة الشمس المكشوفة ؟ إن هددت ومتى السيول الجرارة من الكيماويات التى تلقى بها الصناعة فى البحار تكوين البلانكتون مما يؤدى بدوره إلى انعدام الحياة فى البحار وانعدام مصدر أكثر من نصف الأوكسجين المتوفر فى العالم ؟

اخترع الغرب علما جديداً Ecology علم التوازن الطبيعى ولكنه . وضع مقصدا آثماً لهذا العلم البرىء، هو : كيف يساعد الإنسان فى استغلاله لقوى الطبيعة . فالإنسان الغربى مقمح على الاستغلال حتى بالعلم الذى وضعه هو لحمايته من الاستغلال . وهذا هو قمة التناقض .

ومع إننا لا ننكر المثالية التى يوحيها تقدم العلوم فى إسعاد الإنسان نحن نعيب الغرب على تنمية الجشع فى الإنسان إلى درجة التبذير . وللجشع والتبذير نتائج غير نهب الطبيعة واختلال التوازن ، تلك هى اختلال التوازن فى الإنسان بين طبيعته المادية وطبيعته المعنوية . أليس مسخاً للإنسان أن تحدث الرجل الغربى عن القيم فيسألك عن الثمن ؟ وتحدثه عن الآخرة، فلا يفقه لها معنى سوى ميزان الأرباح والخسائر الذى سيقدمه فى نهاية السنة لمحصل ضريبة الدخل ؟

ومع أننا لا ننكر الإنجازات الهائلة التى حققها الغرب فى تفجير طاقات بشرية هائلة كانت كامنة غير مستعملة وسيرها لإسعاده، نعيب عليه إشعال نيران الحروب والصراع الطبقى . فحروب الاستعمار شنت لفرض الاستعمار على الشعوب . ومازالت تشن للتخلص منه ، لا تعرف لها نهاية . وحروب الطبقات شنت ومازالت إلى أن تبيد الطبقة الواحدة الأخرى . وهى كلها قائمة على التناقض . والتناقض قائم على خطأ المبادىء الأساسية لنظرية العلاقات الإنسانية .

فلا يغرنا أن تطبيق المبادىء الخاطئة أنجز إنجازات كبرى من مفاخرها المساواة بين الأفراد وإخضاع السلطان السياسى لحكمة المحكومين وانتقال السلطة — الخادمة وليست المخدومة — من يد إلى يد دون عنف مادى ظاهر . بل نعترف : بأن إسلامنا لم يحقق لنا خلال القرون الخمسة الماضية ما حققته هذه المبادىء الخاطئة . لكن ذلك لا يعود للإسلام ذاته بل لنقص فى إسلام كل منا . على كل حال لا تغرنا إنجازات الغرب لأننا نعرف : أن كل ما أقيم على الفساد فهو فاسد وإن طال أجله . ومصير الحضارة الغربية المبينة على أساس الشك أصبح ظاهرا . الحضارة الغربية متصدعة ، مقبلة على انهيار تام كما يقول عظماء مفكريها مثل (طوينبى ) (وماكنيل) (وفانلفين) لا لضعف فى قوتها بل الفساد أساسها . وهذا (وليم ماكنيل) رئيس دائرة التاريخ فى جامعة شيكاغو وابن العلامة اللاهوتى الشهير يقول فى نهاية كتابه TheRise of TheWest ازدهار الحضارة الغربية : « إن الحضارة الغربية اليوم ، وفى الطور الأخير من أطوار حياتها ، لأشبه بالضبع الذى بلغ فى فراسته وانتهاكه لكل ما هو معنوى ، واعتدائه على تراث السلف ، على كل مقدس ومحرم ، لأشبه بالضبع الذى أغاص مخلبه فى أمعائه فانتزعها من مكانها وأخذ يفترسها ويعضها ويلوكها بين فكيه بمنتهى البغض والغيظ والتشفى » :

**الاسلام والعلاقات الانسانية :**

**سؤال يواجهنا: والآن ، ان يصلح لنا الغرب مثالا نقتدى به ، فبماذا نقتدى؟**

الجواب : نقتدى بإسلامنا ، الذى اقتدى به أسلافنا فسعدوا وأسعدوا . نقتدى لا بتطبيق المسلمين خلال قرون الوهن والتأخر ، بل بتطبيق المسلمين فى صدور الإسلام ، فى فجره وضحاه .

نقتدى بفحوى الإسلام ، التى هى فوق نسبيات كل زمان ومكان
نقتدى بالتوحيد ، أى بأن: لا إله إلا الله ، دينا وثقافة ، شرعة ومنهاجا.
نقتدى بالتوحيد قانوناً معرفياً وجمالياً واقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً.

**فما هى المبادىء التى تتفرع من التوحيد والتى تقوم عليها العلاقات بين البشر ؟**

١ ــ الظاهرة الطبيعية حقيقة لا تنكر قط . لكنها ليست كل ما فى الوجود . فالوجود ليس كله مادة محسوسة خاضعة لقوانين المعرفة الحسية : هنالك ملكوت واسع من الظواهر المعنوية . فالقيم لا تحس ولكنها موجودة بوجود أقوى وأغنى من وجود الأشياء . فهى فاعلة محركة بينما الأشياء والطبيعة جامدة محركة . وليس صحيحاً: أن القيم لا تعرف يقيناً . بل إن لها علم لا يقل شأنه عن العلوم الطبيعية : له ضوابطه ومنهجه ، وله أحكامه وله تاريخ حافل طويل.

مسخ الغرب الوجود إلى طبيعة محسوسة فحسب على أثر محاربته للكنيسة وما فرضه عليه تعسفاً من مبادىء لاهوتية مناهضة للعقل ومبادىء أخلاقية مناهضة للطبيعة . فألـّه الغرب الطبيعة تماماً كما ألهت الكنيسة نفسها . أما فى التوحيد: فلا كنيسة نحاربها، ولا مناهضة للطبيعة نداويها بدائها . بل تعقل وإيجابية وتقدير للطبيعة وإحساس فطرى بالحقائق المعنوية والقيم.

٢ ــ أن رغبات الإنسان لأحوج ظواهر الطبيعة إلى الانقياد بالقيم المعنوية لأنها أميلها إلى الطغيان ، وإفساد نفسها بنفسها كلما تعدت الحدود التى ترسمها لها القيم. لذلك ، يوجب التوحيد علينا: أن نلجم رغباتنا بلجام القيم ، وأن لا نشبعها إلا بعد التأكد من أن إشباعها المطلوب لا ينتهك قيمة ولا يتعدى حدا . فالشريعة ليست إلا تطبيق القيم على الظواهر الطبيعية . وهى حقة وصادقة

مرتين : مرة بالتنزيل ومرة بالفعل . فهى تعرف يقينا ، ولذلك هى خير معيار لكل شيء .

وليست الطبيعة شرا كما أدعت المسيحية ، بل خيراً . فالشر لا يكمن فيها ، بل فى استعمالها . لذلك بارك الله لنا فيها ، وأوصانا بعدم الغلو فيها . وهذه هى فحوى الروحانية : إلا أن يتجرد الإنسان عن المادة ، بل أن يطلبها ضمن قوانين وحدود مستمدة من ملكوت القيم . فليست السعادة الإسلامية سعادة إشباع رغبات ، بل سعادة تحقيق الذات كلها من رغبة طبيعية ، وشوق روحى . وهذا الانقياد للقيم لا ينطبق على الفرد فحسب ، بل على الجماعة أيضاً . فلا سلطان للجماعة على الفرد إلا بحق ، ولا علاقة بين الجماعة والجماعات الأخرى إلا خاضعة لشريعة القيم . فلا حرب ولا سلام ولا استقرار ولا استئمان إلا بحق . فرفاهية الجماعة حق ، لكنها لا تحقق على حساب الجماعات الأخرى ، ولا تنهب الطبيعة وتغتصب فى سبيلها ، لأن الله هو خالقها وسيدها ، وهو سخرها لنا ضمن حدود القيم . فلاسيطرة للإنسان على الطبيعة ولا تنافس عليها مع أخيه الإنسان . إنما استثمار للطبيعة بتعاون الإنسان مع أخيه الإنسان وبالتواصى والتآخى والمعروف .

### ٣ — كيف يتصور التوحيد رجله ؟

يتصور الغرب رجله كقلعة محاطة بسور ضخم وأبراج مدججة بالمدافع إذا جاءها خارجى ، تصدرت له بالمدافع . فإن استسلم لها فتحت له الباب وأدخلته إلى حظيرتها ، وإلا أفنته . ذلك أن قانونها لا ينبع إلا من ذاتها . وذاتها هى رغباتها . تحقيقها — أى الرغبات — استقلال وسعادة ؛ وتدخل الخارجى فيها اعتداء . والحرية هى تمتع هذه القلعة بانعزالها عن القلعات الأخرى إلا ما انصاع إليها ووقع تحت سيطرتها سواء أكان طبيعة أم بشراً أم جماعة .

ويتصور التوحيد رجله بأنه حصن مفتوح الجوانب على العالم أجمع . يصدر

إشعاعه فى كل اتجاه . فمن انتفع به أصبح قريباً له. واجب التعاون معه ومساعدته كى يكون هو حصنا مشعا آخر . ومن لم ينتفع بإشعاعه ، لا يعزل بل يلاحق إلى أن ينتفع . ورجل التوحيد مقيد بالقيم الصادرة عن توحيده ، يصوم ويفطر ، يتزوج وينعم ، يصلى ويجاهد ، يناجى ربه ويبنى مدنا وصناعة ، سعيد فى الدنيا والآخرة ، فى ذاته وفى الآخرين ، فى بنى قومه وفى الغرباء عنه .

ويتصور الغرب رجله فى علاقاته بغيره بأنها شر لازم ، لأن الأصل فى العلاقة استقلال الذات . لذلك يرى الغرب أن لابد للإنسان إذا ما فرضت عليه العلاقات مع الآخرين ، أن يوازن بين مصلحته ومصالحهم المتضاربة . وهذه هى فلسفة التربية السائدة فى الغرب Education as adjustment : فعلى المربى أن يجعل المربى مختبراً لتعديات الآخرين كى يعدل استراتجيته فى تحقيق رغباته بما يحميه من تلك التعديات ويعفيه من التصديات . فالسلام عنده — كما هو عند كسينجر — ليس إلا توازن القوى Balance of powers

بينما يتصور التوحيد رجله فى علاقاته بغيره بأنه يتحرك وينفعل معهم ، لاليحدث لنفسه التعديلات اللازمة (لأن نفسه معدلة بالتوحيد) بل لكى يحدث فى غيره إيجابياً . فيقلب أوضاع الغير من جوع إلى شبع ، ومن جهل إلى علم ومن عدم أمن إلى طمأنينة ، ومن بشاعة إلى جمال . وكذلك الحكومة الإسلامية فهى بخلاف الحكومة الليبرالية التى تؤثر أقل فأقل ، تؤثر فى رعاياها وفى الأمم الأخرى أكثر فأكثر — لكن إلى الأحسن ، إلى الأحسن الذى يحقق القيم أكثر فأكثر . ففخرة الغرب بالحكومة التى تحرص على عدم التدخل فى شئون رعاياها — إلا ماتعرض منها لعنف مادى ظاهر — تقابلها وتعلو عليها مفخرة التوحيد بالحكومة التى تحرص على التدخل لتحمل رعاياها إلى الجنة على أكتافها — على حد تعبير عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وأخيراً يتصور الغرب رجله بأنه المبدع الذى يصدر الجمال عن ذاته، فما الجمال إلا تعبير الإنسان عن ذاته ، عن طبيعته ورغباته وطموحه وآلامه وشقائه وأحلامه . فهى الآلهة ، كما عرفها الأغريق القدماء من قبل ، وعرفها الغرب منذ عصر النهضة .

بينما يتصور التوحيد رجله بأنه المكتشف ، لا المبدع . واكتشافه هو اكتشاف المعانى الكامنة فى القيم ، الأبعاد المترتبة فى أوامر الله ، السنن القائمة فى المخلوقات كلها ، وهو فى اكتشافاته لها لا يرجو إلا لقاء ربه . فالرؤيا هى هدفه، لا ذاته . منها ينبع الجمال كله . ولها تصبو نفسه .

يهيج الغربى عند يقينه بأن لا إله إلا هو ، بطبيعته ورغباته فيندفع إلى تحقيقها ليؤكد لنفسه أنه ليس ما قالت عنه المسيحية ، بل هو القادر على كل شىء لأن كل ما فيه إلهى . بهذه الرؤيا ، يتفجر الغربى نشاطاً وعزيمة للسطو على الدنيا . ويبقى هيجان إلى أن يتحطم على صخرة التناقض ، على أنغام فاجنر .

ويهيج المسلم الموحد عند يقينه بأن لا إله إلا الله ، وبأنه خليفة الله فى الأرض ليحقق إرادة الله وأمره فى البشر أجمع ، لا إكراها وقهراً وسطوا بل إقناعاً وفصحاً وتعاوناً وصبراً . فإذا غاب عنه هذا اليقين أو غطته الغيوم ، رقد وجمد وتدهور فأصبح فريسة لغيره .

إلا أنه لن يتحطم أبدا . قد تمضى عليه القرون وهو فى سبات عميق لا يرى شمس التوحيد خلف الغشاوة السميكة فوق عينيه . ولكن سرعان ما تنقشع الغيوم ، ويشرق التوحيد أمامه . فيعود له يقينه ، وتعود له رؤياه . عندئذ ينفض رجل التوحيد من جديد ، ويبعث خليفة لله فى أرضه .